الفصل السادس

معركة مع البحر المتلاطم

لم يكف الأسبوع الذى تخيلته امتحان قدرات للإحاطة بهذا السفر الانسانى فى دقته وتفرده ووفرته ، فأعطيت لنفسى مهلة للدراسة والفحص وأخذت أقرأ ما يساعدنى ثم توقفت مليا عند سبب إيراده للأبيات الخمسة الغزلية التى عنونها بـ «نفثة قديمة» ورحت أساوق بينها وبين ما جاء فى الفصل الثالث عشر حول حب المتنبى «لخولة» أخت سيف الدولة ، لا سيما وقد شعرت أن التقاطه لهذا الحب ، قد جعل الأستاذ فؤاد صروف يذكره وكأنه فكرة طائرة ليست ثابتة على قواعدها .. قلت لنفسى لو أن الأستاذ صروف التفت إلى «نفثة قديمة» ما جاء كلامه عابرا هكذا ولقال لنفسه إن شاكر كتب المتنبى فى ظلال تجربة حب كبير ، قر عزمه على كتمانها عن المحيطين به حتى لو كبده لهيبها اللاهث ما لا يطيق أو ما عاناه ، وهو يكتب بالمداد القاتم هذا البحث الشاق عن المتنبى .

لم أقل لنفسى يومها إن هذه الأبيات التى عبرت عن حبه الدفين ، تشى بأنه أسقط تجربته الذاتية على المتنبى وحبه لخولة ، بقدر ما قلت إن هذا الحب هو الذى أعانه فى التقاط حب المتنبى لخولة ، لشدة الشبه فى ظروف عدم معرفة المحيطين بهما «المتنبى وشاكر» .

اتصل بى الأستاذ شاكر خلال الأسبوع المهلة .. ليسألنى : لماذا لم تأت يوم الجمعة الفائت ، فلم أشأ أن أطلعه على عرجى فى قراءة المتنبى بل قلت له - وكان هذا صحيحا - : إن فى باقة مريديك من بادرنى بالعداء فاستفهم : من ؟ قلت له : سيدتان - ولأنى لا أتذكر أسماء من يعادوننى - فقد وصفتهما له ، فما كان منه إلا أن انفجر فى الضحك وهو ينادى : «أم أفهر .. أم فهر .. تعالى واسمعى ماذا تقول عايدة ؟» تناولت الهاتف واستوضحتنى من ؟ فأعدت على مسامعها ما قلته للأستاذ .. فما كان منها هى الأخرى إلا أن انخرطت فى الضحك .. ثم أردفت .. إن هذا لا يجعلك تحجمين عن المجىء .. تعالى وغيظهما تعالى يوم الجمعة صباحا ..

بعد أن تأكدت من استيعابى النسبى للمتنبى كان ذهابى للأستاذ شاكر مبكرة حيث وجدت بيته فى هدوء تام ، لأن الاصدقاء والتلاميذ والمريدين لم يكونوا قد حضروا بعد ، انفردت به وسلمته عدد المقتطف ، فسألنى : هل فهمته جيدا ، قلت : لقد اجتهدت كثيرا رغم أنى قرأت لك وعنك قبل ذلك - إلا أن أسلوبك قد صعب على هذه المرة .. لماذا لا تكتب للناس العاديين .. لابد أن جمهورك سيتضاعف كثيرا .. فأجابنى وفى صوته شىء من السخرية وهو يقول : «إنه لا يشوقنى أن يكون لى جمهور قراء بقدر رغبتى فى أن يكون لى قلة من القراء ، يعرفون قدرى ويفهمون ما أكتب» لقد كتبت فى الرسالة يوما مقالا تحت عنوان «لمن أكتب» لكننى عندما عدت إلى الرسالة وجدت أن مقال «لمن أكتب» لا يخص أسلوبه ، وأنما هو الحلم الذى ينتظره الاستاذ محمود شاكر أن

يوافيه الزمن بفارس شجاع يجعل كلام علامتنا وكل المخلصين معه ، نبراساً فى البحث عن سعادة هذه الأمة العربية الاسلامية .

يومها - وبعدم الكف - الذى يصدم فى العادة كل ما يتحاور معى لأول مرة سمعتنى أقول - وكأن صوتى يأتى من آخر قائلا : وأين تضع نفسك ممن حكمه الله سبحانه وتعالى ، وقد أنزل القرآن على آيات مكية ومدنية وفقا لعقلية الناس فى البلدين ؟ .

تلقى الأستاذ محمود موجتى الهادرة هذه ، بالسخرية اللامبالية .. وهو يقول إن الأختلاف بين الآيات .. لم يأت بسبب ما أتفلسف به .

ولم يفسره لى «١» ، فقد استأذننى فى أن يتخفف من «البدلة» التى يرتديها لأنه عائد من صلاة الجمعة - وهو للعلم لا يرتدى البيجاما «والروب دى شامبر» كالعقاد مثلا بل يفضل الجلباب والعباءة شتاء - أما عندمـــا يذهب إلى بلاد الجزيرة العربية ، فإنه يخرج بالجلباب أيضا .

عاد لى زمن الفهم .. فعرفت أننى تجاسرت على كاتب كبير ، ومن ثم ابتلعت كل الآراء التى كنت قد كونتها عن شخصيته العقلية والنفسية والخلقية ، فمن غير اللائق أن أقول له : إنه إنما بذل كل هذا الجهد الشاق فى كتابته عن المتنبى إلا ليقول للخلق أنه أقدر من العقاد

---

(١) عندما كان الرسول في مكة ، نزلت الآيات المكية التي تتعلق في الأغلب بأمور العقيدة والتعاليم الدينية .. أما حين انتقل الرسول إلي المدينة جاءت الآيات والسور التي تتعلق بالأحكام والقواعد .

وصديقه الرافعي و د . طه حسين وكل من كتب من الكبار قبله ، عبر الفهم العميق للعربية والسيطرة على أدواتها ومعرفة سليقتها ، خاصة وأنه بهذا البحث ومقدمته الشعرية يجمع بين قدرة النقد ، وقدرته على تفكيك القصيدة وإعادة تركيبها والخلق الشعرى فى شخص واحد . خجلت أيضا أن أجابهه بأن قصيدته الغزلية هى التى جعلته يهتدى إلى حب المتنبى لخوله .. فقد كانت الجلسة الأولى بعد التعارف .

جلست فى بهو البيت أتأمل مفرداته .. إنه ليس فخما أو متسعا بقدر ما هو شديد التنسيق والنظافة «يشف ويرف» كما سبق ووصفه الأستاذ يحيى حقى .. وأستطيع وصفه بالأجمال بأنه مكتبة بها بيت .. حيث الكتب تغطى جميع الجدران ، وتزحف إلى كل الأركان .. إلا البهو الذى أجلس فيه حيث الكتب متراصة حول المقعد الأثير لدى الأستاذ محمود شاكر .. وفى مواجهته حامل عليه التليفزيون . علقت على الجدران لوحات مختلفة الأحجام لآيات الذكر الحكيم .. وفى زاويتى الردهة .. لوحتان تحتويان على قصيدتين بمناسبة مولد ابنه فهر أبريل ١٩٦٤ م والثانية بمناسبة مولد ابنته زلفى سنة ١٩٦٩ م ، أما الأولى فمطلعها :

تحية مثل عبير الزهـــــر تهدى إلى فهر وآل فهر

أنت أبا فهر أديب العصر وابنـــك سر لك أى ســر

إلى ختامها :

عشت وعاش النجل طول العمر فى مأمن من غدرات الزمن

أما الخاصة بزلفى فيقول مطلعها :

زلفـــى أنت بعد فهر | بالســـعد والإقبال
فرعان من بيـت مجد | جم المكـــارم عـالى

إلى ختامها القائل :

ما بين زلـــفى وفهر | كالشمس بعد الهلال
عطية اللـــــه ربى | الواهـــب المتعـــال
بقيت للعلم والفضـل | والعـــلا والكمـــال

١٩٦٩ م

عندئذ دخل علىّ الأستاذ شاكر وقد ارتدى الجلباب وسألنى هل ستجلسين هكذا ؟ لماذا لا تعملين شيئا .. تعالى ودخل بى إلى حجرة الطعـام ، رتبى هذه الأطباق على المائدة ضـعى الملاعق والشـوك والسكاكين .. عندما دخلت زوجته أم فهر وأرادت أن تساعدنى رفض .. وبعد أن رتبت هذا الكم الكبير من الأطباق .. أخذ بيدى حيث أم فهر فى المطبخ وأمرنى - رغم معارضتها - أن أصنع «السلاطة» ، بعد ذلك عرفت أن الأستاذ محمود شاكر .. إن لم يكن منغمرا فى القراءة والكتابة فهو يشارك بالمساعدة فى أعمال البيت الذى لا يستخدم عاملا أو عاملة تساعدهم فى تلبية مطالب الضيوف التى لا تنقطع .. وآه لو رأيته يجفف الأوانى الكثيرة بعد الغسل .. إنه يقوم بهذه المهمة فى حذق وجدية كما لو أنه يكتب بحثا دقيقا .

بعد ذلك بدأ جـرس الباب يرن رنات متتالية تـوالى على أثرها

قدوم الزوار وبـــدأت مع زوجته فى وضع أشهى المأكولات على المائدة .. ودخل الضيوف وأمرنا الأستاذ شاكر أن نسمى على طعامنا .. ففعلنا .

وقد سعدت كما لم أسعد من قبل فى حياتى لجلوسى إلى هذه المائدة العامرة .. ليس لأطايب طعامها - الذى وصفه الشاعر عبد الرحمن صدقى فى يوم جاء يصحبنى «إنه أكل الجنة» ووصفه آخر بأنه يؤكل ولو كان الأنسان ممتلئا - ولا للمناقشات التى تدور عليها فحسب وإنما للشخصيات الأسرة الجديدة علىّ ، فهذا هو المثقف الموسوعى السعودى «أحمد بن محمد بن مانع» وهو من أحبهم إلى الأستاذ محمود شاكر وأقربهم إلى مجلسه - يستمع إلى كلمات الحاضرين ويناقشها بدقة فكرية لا نظير لها .. الشاعر الفحل محمود حسن اسماعيل يشركه الأستاذ فى الحوار ليخرجه من صمته بحساسية مفرطة ، بعكس ما يفعله مع الأستاذ يحيى حقى حيث مداعباته له تقرب كثيرا من التحرش ، ومع ذلك يتلقاها الأستاذ يحيى بصدر رحب حتى لو كانت أمام مرءوسيه أو أمام جدد من الوافدين على الجلسة قد لا يعرفون كم تحمل هذه المداعبات من عظيم المودة وقدم الإعزاز ، نعم فجلسة الطعام هذه قد يجلس إليها ضيف قد أتى لأول مرة إلى بيت الأستاذ يستزيد من علمه فى مسألة لغوية أو نحوية أو شعرية فيستبقيه الأستاذ على الغداء مع أهله وعشيرته ، فهو يتبنى كل من آنس فيه خيرا لمستقبل العربية . وقد يجلس معنا «عم أنور» حلاق الأستاذ حتى لو كان بالجلسة وزراء سابقون ولاحقون كالدكتور ناصر الأسد وزير التعليم الأردنى ، والدكتور شاكر الفحام وزير التعليم السورى ، والدكتور عبد

الله الغنيم وزير التربية الكويتى .. بل قد يجلس إلى هذه المائدة انسان ليس له بالبيت علاقة ، كمن تعرف بهم الأستاذ فى سجنه ووقف على قدر عوزهم .. مبادراً إلى مساعدتهم مع فقراء الطلبة الذين دخلوا بيته تباعا دون أن يعرف أحد شيئا عن ذلك ..

وعندما يأتى الدكتور محمود الطناحى .. الذى يحضر مع زوجته وأولاده ، وكلما روى طرفة فإن الأستاذ محمود شاكر يأتى بطرفة مشابهة من أحداث حياته .. ثم يلتقط خيط الحديث أولاد أخيه الشيخ على «زهير وعبد الرحمن وعلى» ويغدو الحديث على مائدة طعامه من أمتع ما يكون الحديث .. ولا تخلو مائدته من «الملوخية» ولأنها غير معروفة فى كثير من البلاد العربية .. فهو يمازح ضيوفه العرب بأن يتذوقوها .. وهو دائما يذكر من منهم تردد أو أحجم أو أقبل عليها ، وأم فهر هى التى تضع الأكل فى طبقه ، وتقشر له الفاكهة التى يحبها ، وهو يحب من الحلوى صينية «قرع العسل» .

وغالبا ما ينتهى من طعامه قبل ضيوفه . لذلك فهو يتناول الحلوى متعجلا لكى يشعل سيجارة .. فهو مدخن تليد - أمره الطبيب بالإقلاع فامتنع عنها مدة سنتين ولكن لم يكتب فيها شيئا .. وهو الآن ممتنع عن التدخين ومن ثم فهو لا يكتب شيئا بأمر الطبيب !

وقد يسأل متعجل .. على رسلك .. ها أنت تصفين المائدة وصاحبها وأولاده وضيوفه .. ولم تذكرى شيئا عن كهرمانة البيت أم أولاده التى تتعهد هذا الجمع كل جمعة - كما تصفين الآن ..

زواجه بأم فهر

ولأجل عيون أم فهر أقفز فوق الأحداث والسنين إلى ما كان فى أحد أيام عيد ميلاد الأستاذ محمود شاكر سنة ١٩٨٣ .. الذى يوافق يوم عاشوراء ، حيث اصطحبت معى صديقتى الأثيرة الفنانة القديرة كريمة مختار .. التى أخذتها الدهشة مما كان فى مجلسنا الحافل هذا .. بمريديه الكثر .. هذا يلقى قصيدة ، والآخر كلمة ، والثالث ذكرى فى مناقب محمود شاكر وشمائله ، وكان الأستاذ عامر العقاد يقدم المتحدثين .. وفجأة سمعته يعلن عن رغبة الفنانة كريمة مختار فى الكلام ، وأسقط فى يدى وربما فى يديها .. إننى لم أحدثها قط عن الأستاذ فماذا ستقول ؟ هل خالت أن ما يدور حولها عرض فنى .. يجب عليها حياله أن تبرز عبقريتها ؟ وبغتة وصلنى صوتها يقول : إننى لم أقض مثل هذه اللحظات الجميلة فى حياتى ولم أر مثل ذلك الحب المتدفق من المريدين لشيخهم ، وقد دار فى ذهنى الآن سؤال : كيف يختار العلماء الأجــلاء زوجاتهم ؟ فران الصمت عميقا فوق هامات المريدين وكأن على رءوسهم الطير .. فتوجهت أنظارهم واشرأبت أعناقهم وأصاخت آذانهم .. وبغتة أتانا صوت محمود شاكر بسماحته المعهودة مع الضيوف الجدد على مجلسه ، يقول : أنا من الناس الذين لا يجيدون الكلام .. لأن صنعتى هى الكتابة . ولزواجى بأم فهر قصة «عجيبة» .. ذلك أننى عندما تركت الجامعة كما تعرفون هاجرت إلى السعودية .. وبقيت هناك عامين ، ثم استدرك : لم يكن البترول قد ظهر فيها ومن ثم لم تكن ذات ثراء كما هى الآن «هناك كان لى صديق من

أســرة كريمة ، هـو الأسـتـاذ حـسين نصـيف ، وكـان بينى وبين أسـرته مـودة ، فـحـملنى صـديقى وأهله إلى الزواج وتحـقق ذلك بخطبتـى التى تمت بمشـورتـهم عـام ١٩٢٩ ، بعـدهـا ألمت بـأهلى فى مـصـر ملمـة - لم يذكرها غير أنى أظن أنهـا كـانت وفـاة أختـه صـفـيـة - وبدأت أتلقى رجاء الأهل والأساتذة للعودة ، ورجعت إلى مصر فى العـام الذى ولدت فيه أم فهر ....

مـرت الأيام وتوالت السـنون ويشـاء الله أن تتـعـرف أخـتـى عـزيزة بإحدى حفـيدات الشيخ حـسن الكفراوى شـارح الأجرومية «قواعد اللغة» - الذى بنى له الخليفة على بك الكبير - العصر العثمانى - جـامع أبو الذهب إمام الأزهر الشـريف - وهـو المسـجـد الوحـيد فى مصر ، الذى يعلو دكاكين الباعة ، أى أن الصـعود له يكون عن طـريق الدرج - «ليلقى فيه دروسـه .. ولهـذا الشـيـخ الجليل مـسـجـد كبير فى بلدته كفر الشيخ ..

أعلمتنى أختـى عمن قـابلت مردفة بأن هذه الحفـيدة قد هاجرت بهـا والدتـها مع أخـواتها من كفـر الشـيخ ، حـثثت أختى بأن تـصطحبـها إلى بيتنا وحين رأيتـها أعجبت بدمـاثة خلقـها وحيائها .. ومن حمـاسى لهذه الفتاة النيرة ذهبت أقابل والدتها وأشاورها فى أن أتبنـى هذه الفتـاة .. وعندمـا لفـتت حمـاستى نظر من حـولى .. نبـهونى أنه ليس فى الاسـلام تبنى ، قلت وأنـا أكثـر حـماسـة وغير مـتراجع ستكون ربيبـتى . حـفيدة الرجل الصـالح ذى المقـام المهيب ، هذه هـى أم فـهر ، التى بقيت معنا أنا

وأختى عزيزة من سنة ١٩٤٥ طفلة إلى أن بلغت الشباب ، حيث أخذ يتوافد عليها الخطاب .. وكلما جاء أحدهم بنية انتزاعها من بيتى اشتد إحساسى بأننى سأفقد شيئا عزيزا على نفسى ، حتى خلت أننى لن أحيا بفقدها أبدا .. فاقترح أحدهم علىّ الزواج بها .. فكان .. والفضل كله يرجع إلى الأستاذ أحمد المانع .

وهكذا كان هذا الزواج على خلاف الأشياء .. ذلك أنه فى سنة ٢٩ عندما خطبت فى السعودية ، كانت أم فهر نطفة فى بطن أمها ، وكأن القدر كان يرسم لى ولها مسارا غير متوقع أى خلاف الأشياء .. فهى إذن رعتنى قبل أن تكون زوجتى ، وأكرمتنى وحفظتنى – ثم انفجر فى البكاء وعاد يسمع بالكاد – وأكثر من ذلك أنها تحملتنى ، أكثر الله من خيرها ومن أمثالها ، تحملت الوحدة مع وليدها سنوات سجنى مرتين ، وتحملتنى خارجا منه مريضا نافد الصبر ثم تبسم من بين غمام بكائه ، ثم أردف قائلا : وهى صاحبة الفضل عليكم جميعا .

وبينما انفجر الجميع بالضحك والموافقة .. همس الدكتور محمود الربيعى فى أذنى . إن اصطحابك للسيدة كريمة مختار اليوم ، جعلت أستاذنا ينشر أنصع صفحة فى حياته قاطبة . فهذه السيدة أم فهر «نعيمة» جاءت على خلاف الأشياء بالفعل ، لأن الرجل منا يفتح بيته للأصدقاء طالما هو غير متزوج ، أما إذا تزوج فإنه يغلق بابه على جنته «كما وصف مالك بن أنس الزواج والبيت ليسعد أو ليهنأ .. أما هذه السيدة البشوش فقد فتحت بعد زواجها منه باب بيته على مصراعيه ، لجميع تلامذته من جميع الأقطار العربية والاسلامية ، حتى اتسع هذا البيت غير المتسع لكثير من قاصديه ينزلون عليه من بلادهم .

وأحسب أنني وكثيرين غيري ، عندما يفكرون في زيارة الأستاذ يكون وجه هذه السيدة الودود الكريم لائحا في خيالنا . نعم فنحن قد نزور الأصدقاء الأساتذة ولكن على وجـــل من زوجاتهم ، بل إننا عندما نودع الأستاذ في آخر زياراتنا ، وتكون هي مشغولة بشيء فإنه ينادي أم فهر أم فهر .. إن فـــلانا سيغادرنا فتعالي وسلمي عليه .. وهل تتصورين أنني أول مرة زرتهم فيها ألحت عليّ هذه السيدة الفاضلة أن أتناول الغـــذاء معهم .. إن هذا لا يحدث كثيرا عندما أزور أغلب قبيلتي !

قلت له وماذا أقول أنا وقد استمرت علاقتي بأسرة شاكر خمسة وعشرين عاما .. ولا أعرف وقع ما سأقوله من العقيدة .. ذلك أنه يخيل لي وهي تعد لإحدى مساعداتها الغذاء قبل أن تقدمه لأسرتها وضيوفها .. أن يدها السخية تعيد إلى ذاكرتي ما قرأته عن إحدى زوجات الرسول وهي تقتسم مع مساعدتها التمر الذي جاءها هدية ، إن أم فهر تحب الكائنات حتى إذا رأيت قططها يتحلقنها وكأنها أمهم، تلاطفهم ويلاطفونها ثم أخفضت صوتي وقلت صورتها قديسة فلو سمعني الأستاذ محمود شاكر وانا أتداول هذا الوصف لنهرني كما فعل سابقا .. ونهاني عن هذه اللفظة قائلا لي قولي طيبة صالحـــة ، مع أن كلمة قديسة وردت في القرآن الكـــريم كثيرا ولكنه يدخلها في ألفاظ غير الاسلام ! وضحك الدكتور الربيعي .. وقال شاكر أعرف بصحيح الألفاظ والمعاني !

شهادات حازها شاكر

أما ما يصف به الأستاذ يحيى حقى عظمة أم فهر .. فهو غاية فى الروعة .. حين يلمس الطاسات الفضية المرصعة بآيات الذكر الحكيم ليشرب بها ، ويشير إلى ماء الورد والزهر والنعناع .. أو القلل التى تقتنيها رغم الثلاجة وأحدث مبرد للماء . ويقول : «لن تجدى مثل هذه الأشياء إلا فى بيت محمود شاكر ، إنها أنامل أم فهر .. نعم إنها أنامل أم فهر .. أم فهر التى بمعرفتى لها ولزوجها انزاح عن كاهلى كثير من مشاكل حياتى المعيشية .. لقد صار لى فى بيتها ركن فى حصن أهجع إليه من هجير الحياة .. ولا شك أن كثيرين مثلى يشعرون بما أحس تجاه هذا البيت التليد .. فأين الآن البيت المفتوح علي مصراعيه لاستقبال من ليس له أنيس؟ .. يدخله فى أى وقت وفى أى ظرف فيتلقاه بالبشر .. إننا لا نتعلم ولا نأكل فى هذا البيت فقط .. بل قد تتحفنا أم فهر بشىء نأخذه أيضا لبيوتنا .. فيا لهذا الوعد .. إن هذا البيت ترجم أمام ناظرى مقولات مثل «نزلت سهلا .. ولقيت أهلا وغيره من أمثال الترحيب . وتعريفكم بالركن الركين لهذه الأسرة لايعنى أركان الأسرة العادية المكونة من زوج وزوجة وأولاد .. لا فهذا هيكل خارجى فقط .. أما المحتوى فإنه يختلف عن مألوف مانعرفه من رجل يذهب الى عمله والزوجة فى البيت والأولاد فى مدارسهم أو أعمالهم ، لا فالبيت هنا هو الحياة بأسرها لصاحب هذا البيت والذى تحيا فيه أيضا مشاعره نحو أمته ودينه .. وقد وصف موقع هذا الرجل من أمته ودينه الأستاذ

كمال النجمى «١» فقال : إنه ليقف اليوم وقد انتهت اليه الرئاسة فى علوم اللغة وآدابها، قائما بسلاحه على نفس الثغرة التى كان يدفع عنها الاعداء منذ ستين عاما ، منفردا متوحدا ، قد خلا الميدان إلا منه لأن حربه التى أعلنها علي الفساد لاتضع أبدا أوزارها» .

أما عن صاحب البيت فقد كتب الدكتور ناصر الأسد عن طرف من أعماله وطريقته فى إخراجه فقال : «وأمام هذا الصرح الممرد وقف المحقق الثبت الأستاذ محمود محمد شاكر سنوات طوالا يطرق بابه فى رفق حينا ، وفى عنف حينا آخر ، وفى تثبيت وعزم واصرار فى جميع الأحيان، حتى انفتح له، فولجه ، وجاس خلاله ، غرفة غرفة، وقاعة قاعة، يستبين معالمه ويستجلى خفاياه ، ويستخرج مكنونه وينصب فيه من المعالم والصور ، ما يهديه سبيله حين يعود إليه ليواصل سعيه ، وقد عاد مرات ومرات ، فلما أطمأن الى أنه مستطيع أن يجلو هذا الأثر الخالد لإيصاله بنى قومه عقد العزم ومضى يفرى طريقه فريا «٢» .

أما الدكتور شكرى عياد فعندما كتب عن منهج الأستاذ شاكر التذوقى استهل مقاله «عاشق العربية» «٣» بقوله «أحيى محمود شاكر

---

(١) ـ محمود محمد شاكر يكتب رسالة في ثقافتنا «جريدة الشرق الأوسط ، العدد ٣٢٩٤ السبت ٥/٢/١٩٨٧ .

(٢) الجزء الخامس من تفسير الطبري .. مجلة معهد المخطوطات المجلد الثاني الجزء الأول سنة ١٩٥٦

(٣) «عاشق العربية» مجلة الهلال القاهرية أبريل سنة ١٩٨٩ .

عاشق اللغة العربية ، متى وجد نفسه أسير هواها ؟ أظنه وجد نفسه ! كأنه قيس إذ يقول فى ليلاه :

تعلقت ليلى وهى بعد صغيرة

ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

صغيرين نرعى البهم ياليت أننا

صغيران لم نكبر ولم تكبر البهم

ولأنه فى صدر مقاله أثبت أن شاكر عاش حياته مولعا باللغة العربية فقد استدرك قائلا لذلك سمينا أخانا وحبيبنا وأستاذنا محمود محمد شاكر فى عنوان المقال عاشق العربية ، وفى صدر المقال عاشق اللغة العربية «١» فلا فرق عندنا بين اللغة العربية وبين معنى العروبة نفسه ، بل لا فرق عندنا بين اللغة العربية وبين الفن العربى والعلم العربى والفلسفة العربية ، والناس يحسبون التعمق فى اللغة العربية حفظا للغريب ومهارة فى حل الألغاز الإعرابية ، ولعلهم حين يسمعون مثل تلك التسمية لا يفكرون إلا فى شاكر العالم اللغوى أو محقق الكتب القديمة . مع أنه فنان وعالم ، وقد سهل عليه الجمع بين الفن والعلم لأن منهجه تذوقى ».

ويسترسل الدكتور شكرى فى أول شهادة من أستاذ جامعى فحل «جامعة القاهرة» فى تقريظ المنهج التذوقى الذى لم يتوقف فيه إلا على

---

(١) الأستاذ شاكر لايستعذب أن تسبق العربية بكلمة اللغة . لأن العربية هي لسان العرب.

حب المتنبى لخولة .. ونسترسل نحن معه ، وبودنا لو أثبتنا مقاله كاملا - ليس لما به من درر وجواهر فقط ، بل لأنه - ربما - أول شهادة من أستاذ جامعى فحل تتلمذ على الدكتور طه - الذى أشاع عن توفيق الحكيم قوله «أنه ليس له عدو فى العلن ولا صديق فى السر، فهو أبو الهول الذى لايمكن دكه» .

ومن الغريب أننا لو قلبنا هذه المقولة لوجدناها تنطبق علي محمود شاكر الذى يكثر معارضوه في العلن مع أنهم فى السر موقنون كم هو على حق، مما يجعلنا نصدق إن للأقول الاستعراضية شهرة من الدرجة الأولى .. أما مكتشفوها فإن كلماتهم تذهب أدراج الريح مع أنهم هم الصادقون .

ثم يصف الدكتور شكرى اللحظة الفاصلة المعروفة فى حياة شاكر ، أو مجابهته للدكتور طه غضبا لأصالة الشعر الجاهلى ، أو على حد قول الدكتور شكرى ، «عندما رأى ذراعا غليظا تزيح تلك الدواوين نفسها من على منضدة الدرس لتسقط فى فراغ العدم .. ريع الفتى ، وأنكر .. فأخرسه احترام السن و.. ثم غلب الغيظ علي الكتمان ونطق الفتى» ولعلها

«نقطة صغيرة فى كتاب التاريخ ، غيرت المعنى كله» .

فهذه الحادثة الصغيرة التى زادت من تأثيرها جرأة الطالب وشهرة الأستاذ - فى نظرى أنا على الأقل ، نقطة تحول فى تاريخنا الثقافى - وقبل أن تستكثروا منى هذا أرجو أن تتذكروا ماتعلمتوه جميعا فى

المدارس من أن ابتداء الفكر المعتزلى كان حين اعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى» .

ومما يدعونا للتأمل .. أن نجد أن الدكتور شكرى قد قمص شاكر شخصية المعتزل واصل بن عطاء .. فى حين سبق لأستاذ شاكر وهو الرافعى أن قمص فى مقالاته عن الانتحار شخصية الحسن البصرى .. فهل تحوى شخصية شاكر كلا الشخصيتين «الإمام والمعتزل» إن هذا وارد بالطبع .. فشاكر قد اعتزل ليعلم نفسه وليصبح بعد ذلك معلما وربما ترجع نظرة كلا الكاتبين – الذى مر بينهما أكثر من خمسين عاما - إلى الزاوية التى صور بها محمود شاكر فأستاذه الرافعى أعطاه شخصية الحسن البصرى لأستشفافه . المستقبل الذى سيكون عليه محمود شاكر والشبيه بهذا الإمام الذى شهر بعلمه وفقهه وفصاحته ونسكه .. حتى أن استغفاراته هى أحسن ما ألف فى بابها وتذكرنا بالفعل بالاستغفارات التى استهل بها محمود شاكر بعد ذلك كل كتبه ومقالاته ومحاضراته، أما الدكتور شكرى فأعطاه شخصية واصل بن عطاء لأنه بلور حياة محمود شاكر ، التى ماهى إلا سلسلة من المعارك ، أو على حد قول محمود شاكر مراجعات وتصديات، وقد تسنى للدكتور شكرى هذا الربط الموفق لأنه وشاكر كانا من تلامذة الدكتور طه حسين، لكن شاكر كان أكثر جرأة وجسارة حين اعتزل درس أستاذهما .

أما عندما وقف علي أعتاب الكتابة عن محمود شاكر تلميذه

وصديقه الدكتور محمود الطناحى نجده قد احتار فقال : «ولكن كيف أكتب عنك أيها الشيخ الجليل ، ومن أين أبدأ وكيف أمضى، وإلى أين انتهى ؟ والحديث عنك إنما هو تاريخ هذه الأمة العربية الشريفة ، عقيدة ولغة وفكرا ورجالا وآمادا رحبة متطاولة ، لا يقدرها إلا أنت ، ولا يعرف كنهها إلا أنت ، وتاريخ أمتنا حاضر بين يديك ، ماثل أمام عينيك ، لم يغب عنك لحظة ، ولم تخدع عنه لحظة ، فماذا أنا قائل فيك ، وماذا أنا بالغ من الكتابة عنك ؟

«ومعذرة ثم معذرة شيخى أبا فهر إذ أكتب عنك بهذه الوجازة التى تراها (مع أنه كتب عنه أكثر من فصل فى نفس الكتاب) أراك الله الخير كله ودلك عليه ، ورغبك فيه» .

«ثم معذرة من بابة أخرى : وهو أن أكثر ماستقرأه ، إن شاء الله منتزع من كلامك ، مدلول عليه بفكرك ، فأنا إنما أكتب «١» عنك بك وأتقدم منك إليك» .

أما ماقاله فيه الشعراء فيربو على الكتاب الضخم ، نجتزىء منه ـ على سبيل المثال ـ إنشاد الشاعر الفحل ـ محمود حسن اسماعيل من قصيدة طويلة فى شاكر شيخ العربية .. استقبله بها يوم وصل الى الكويت فى وجوده .

وأراك أنت بكل لج موجها

والهادر المشبوب فى شلالها

«١» كتاب الدكتور محمود الطناحي، مدخل الي تاريخ نشر التراث مع محاضرة في التصحيف والتحريف» .

وأراك أنت عليهما وكليمها

والجاذر الشبهات فى استدلالها

يحبو إليك الموغرون بكيدها

فتصدهم صد الرقى لثقالها

والعاطشون الحائرون تردهم

أغصان دوحتها وروض جمالها

وإن قال أحدهم إن محمود حسن اسماعيل هو الصديق الصدوق لمحمود شاكر ولابد أن يصفه هكذا .. بشكل آخاذ وجميل، فإننا نورد بعضا من قصيدة لتلميذ له كان فى الأصل تلميذ العقاد وهو الأستاذ شوقى هيكل يصور مكان محمود شاكر فى العربية فيقول :

حبذا الرابض فى صحن عرينه

يرقب الغيب بأحداق عيونه

فى حنان وحنين للمدى

يطلق النظرة من بين جفونه

شامخ الرأس عزيز مؤمن

تشرق العزة من غر جبينه

هادر النفس تبدى ساكنا

وهو بحر راعنا هول سكونه

صمته حكمة دهر صاغها

عقـــله الناطق عن وحى يقينه

قلبه الخـــــافق فيه رنة

تنشـــد الثورة فاسـمع لرنينه

يبعث الماضى تراثا عاطرا

ينهل الخالد شذى من ياسمينه

كونه علم وفكـــــر وتقى

وكتاب خطـــه حـــر يمينه

وتلك بعض هذه الشـهادات رأيتـها مجسدة أمامى بعد التعرف على أستاذنا شـاكر، حيث استـهللت أول مقال لى عنه بمجلة الاذاعة (١) بأن «عـالمه ليس من النوع المألوف الذى نقـرأ عنه فى صـحـفنا ومـجـلاتنا المعاصرة . إن صورته هى جزء من مجالس العلم القديمة التى يصلنا شذاها عبر سطور التاريخ ومن خلال صفحات أمهات الكتب العربية ، تلك المجـالس التى اضـاءت بمصـابيح العبـقرية العربيـة ، متـمثلة فى علمائها ورواتها وشعرائها وفقهائها وكل من انتظم فى ذلك العقد الفريد من هؤلاء الرجال العظام الذين مكنوا لكل مـاهو عربى أصيل فى هذه الأرض .

واثباتى هنا طرفا من الشـهادات التى حازها محمود شاكر والتى

---

(١) محمود محمد شاكر .. كاتبا شاعرا ورجل سياسة ،مجلة الاذاعة المصرية، السبت ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٧٢ .

جاءت من أناس مختلفى الاتجاهات «صحفى» /رئيس مجمع لغوى بالأردن/ أستاذ جامعى/ وأستاذ درعمى ثم كاتبة صحفية غير معروفة لم تكن قبل لقائها به تعرف كيف يقام بيت الشعر ولاتستطيع بسهولة كجيلها المفرغ ، أن تقتحم وتفهم أثرا من ارث قومها - الذى ألف ونظر فيه محمود شاكر ، أو أن تتوغل فى قواعد النحو والصرف ، ولاتتعدى معرفتها برجال الفقه إلا ما درسته فى كلية الحقوق ، ولكنها رغم ذلك كله تتجاسر وتتصدى لتصوير شخصية عالم فى كل هذه الفروع بحجة أن هناك اختلافا بين دراسة الكتب التى ألفها محمود شاكر وبين دراسته هو ذاته - وأننى ما أوردت هذه الشهادات الا لتثبت أصالة فكره مبدئيا .. حتى لاتحسبن أننى أتناول حياة محمود شاكر بمنقبية أو شمائلية - وربما استشففتم دوافعها من شغفى السابق للتعرف عليه . لا فإنى عازمة إن شاء الله على النظر اليه كآدمى وإن بشريته توجب علىّ أن أصوره علي أنه صنيعة وراثية وبيئية ، أى إن كل ما أرجوه أن أقدم لوحة معبرة وناطقة تحيط بشخص وعمل كاتب كبير أعجبت بأدبه وشخصه ، حُرم أغلب هذا الجيل - للأسف من التعرف إليه ، وبودى ألا أتحيز فيها له .. فأحاول الاحتفاظ بأبعاد شخصيته بحيث يتصف بالإعجاب والنقد معا . والمهم ألا يحمل عملى حماقات كثيرة وهنا يجب أن ألفت النظر الى منهج كتابتى حيث تطغى وجهة نظر الآخرين أحيانا، ومن ثم تتوارى انطباعاتى عنه .. وكأنى وراءهم .. ذلك أننى فى البداية اتخذت الأسلوب الذاتى ، فوجدته قاصرا فانتقلت إلى الأسلوب الموضوعى فوجدته جافا فاهتديت أخيرا إلى أن أوفى طريقة هى أن

أسلك بين الاسلوبين لتصوير شخصيته المترامية الاهتمامات فى علوم العربية ، حيث خلت وأنا أصوره كأنى أخرج فيلما ضخما أحتاج فى تنفيذه ، الى خبراء فى هذه العلوم يعرفون تاريخ حياته .. قبل أن أعرفها أنا ، كما أن أقوالهم غالبا ماتغنينى عن كثير من التفاصيل والتأكيدات .. وتظهر المحايدة .

ثم إن أوا لقاء بمحمود شاكر وأول مقال لى عنه مضى عليهما خمسة وعشرون عاما .. فكيف أصوره دفعة واحدة . لقد عايشته من أيام كان يثور ويفور إذا خدش أحد الجلساء حدود العروبة والإسلام الى أن صار يهز رأسه صامتا غير معلق إذا احدث ذلك الآن .. لايأسا .. فالتعس الحره لاتيأس من رحمة الله وإنما لأن المرض يلم به أحيانا ويعمل فى فت عزيمته إذ أن لجدران بهو منزله لسانا أو قلما لقص وكتب عن عوالم وعلماء من شتى بقاع الأرض وكيف تكلموا وتدارسوا .. موضوعات فى النحو والفقه والشعر والرجال والتاريخ مما يغطى رسائل جامعية كثيرة وأحسب أن القارىء ربما يكتشف ـ بالطبع ـ أن هذه الاستطرادات تشى بوجلى من دخول عالم محمود شاكر وكيف أتجاسر علي ذلك وقد وقف من هو أكثر منى علما طويلا ببابه دون استطاعته الدخول ، فقد كتب الدكتور أحمد عبيد الكبيسى وكيل كلية الحقوق والشريعة بجامعة الأمارات العربية المتحدة وهو عراقى : «لكى أكون جديرا بالكتابة عن واحد من القمم والشوامخ مثل محمود شاكر ، لابد لى من أن أكون فى مستواه أو قريبا منه ولست بذلك» .

«ولكى أكون قادرا على النظر فى فكره وآثاره ومناهجه ، لابد لى من

عمر طويل يحسب بحبات العرق وعدد الصفحات ولايحسب بالساعات والأيام .. ولكنى لا أجد ذلك» .

«ولكى أكون أمينا علي تاريخ سيرته وتسجيل وقائع حياته ومواقع حله وترحاله ، لابد لى من أن أكون قد تشرفت بمشاركته رحلة عمره ومسيرة أيامه ولكنى لم أكن كذلك» .

«وهكذا أدركت أننى خسرت فرصة العمر ، بقصورى عن الكتابة عنه وفرطت فى صفقة العقل بعجزى عن النظر فيه وأضعت متعة النفس حيث لم أؤرخ له» .

لاتحسبوا أنى مبهورة بعالم محمود شاكر ظنا منكم أنه العالم الوحيد الذى وصلت نفسى به لا فقد كتبت قبل ذلك مذكرات «شاهدة ربع قرن» الذى يشهد بأننى تجولت فى عوالم وتوثقت بعلماء وقمم كثر قبله .. وأقولها صادقة ليتنى بدأت بعالمه فلاشك أنه كان يجعلنى أكثر دقة وفطنة وأقل ثرثرة .

وأعود فأقول إننى وبعد توالى الزيارة عرفت أن وداعته الأولى معى كانت من باب حسن الاستقبال والضيافة العربية ، أما بعد أن أصبحت من الحاضرين الدائمين لمجلس الجمعة فقد توقفت على ما يتباين مع وداعته الأولى : ذلك أننى يوم ناقشته فى العدد الممتاز من المقتطف الذى كتبه عن المتنبى ، وند علي لسانى ذلك التعبير التلقائى المتسائل عن صعوبة أسلوبه ، ولماذا لايخفف منه حتى يكون قراؤه أكثر ؟ «أين تضع نفسك من الله تعالى وآياته مكية ومدنية وفقا لعقلية كلا البلدين» ثم سخريته غير الآبهة من كلامى .. كان بمثابة أول معول يهدم السد

الوهمي الذى كان قد حجزني عنه طوال سنين شغفى بالتعرف إليه فانهار هذا السد وهدرت أمواجه العالية فى مواجهة أمواجى الاستفزازية دون برازخ تساوى بين علو أمواجه .. وعدم قدرتى التحكم فى إرادتى ، مما نتج عنه دوامات كثيرة .. وصادفته جنادل ثقيلة .

لقد جعل منى هذا الحوار الطائر .. إنسانة مشاكسة لمحمود شاكر، ذلك إننى وجدته أولا يسخر من كلامنا حول أغلب القضايا المطروحة علي صفحات مجلاتنا وجرائدنا، يهدم أمامى شخصيات أجلها .. لا يأبه بطريقة انشغالنا بالقضايا السياسية والاجتماعية .. فاذا تفوه أحدنا مثلا بأن محمد علي باشا وضع مصر على أول سلمات العصر الحديث قال بل إن الأستعمار هو الذى رفعه لهدم الدولة العثمانية، ثم إنه من هذا العلو سيسهل لهم إسقاطه إلى القاع .. وإذا قلنا أننا علي أهبة الدخول الي القرن الواحد والعشرين ، رد : بأننا حملنا الي القرن الواحد والعشرين فأين إسهاماتنا فيه .. مما جعلنى أحاور نفسى .. إن هذا الرجل لايعجبه شيء فى حياة مصر .. ثم إنى كنت كبهلولة عبر مكابرتى الفكرية المحدودة ازاء تصديق أن كل ماغيرته وما أنجزته مصر على أرضها سياسيا واجتماعيا قد تم بدون حركة أصيلة وعريقة علي الجبهة الفكرية منذ أكثر من قرن ونصف ، ولا أظن أنها قد انتهت الي هذا «السيرك» أوما يصفها به محمود شاكر من أنه نصب وفهلوه .

لقد كنت عندما أسمع كل هذه الآراء ـ وقت ذاك ـ أروح فى غيبوبة مدوخة تعيدنى اندياح حلقاتها ، إلى مشارف فكرته عن نفسه يوم خرج للعالم ، من أنه التفاحة وسط البصل ، وهو وإن كان قالها فى سن

مبكرة بعد مغادرته الجامعة ثم فقدها واستنكرها من بعد، لأن إمكانات البصلة تؤهلها أن تقلب معادلته .. وأروح أتساءل هل مثل هذه الخبرات القوية لاتموت، وهل يمكن أن يكون لها تأثير ودلالات فى جميع مراحل ترقى صاحبها، لا أظن دليلى على ذلك قوله على كتاباته عن العالم السورى راتب النفاخ ، من أنه تلميذه ثم صار أستاذه أو ذكره لمراجعة الدكتور محمود على مكى له فى إحدى جزئيات ملحق المقتطف عن المتنبى . وإثباتها عندما ظهرت كتابا .. بل إنه عندما استشهد علي انحراف العقلية العربية الآن اتكأ علي كتاب التفكير العلمى «للدكتور فؤاد زكريا ووصفه بأنه كتاب جيد رغم تباين اتجاهاتهما . إنه قرع نفسه بعد قراءته لكتاب «تاريخ الدعوة إلي اللغة العامية» تأليف الدكتورة نفوسة زكريا سعيد .. لأنها وحدها تتبعت ماجرى فى تاريخ هذه الدعوة بترتيب تاريخى متصل.

شىء آخر الجائنى إلى مشاكسة الأستاذ محمود شاكر ألا وهو رفضه المتكرر للإجابة عن تساؤلاتى حول حياته وكتبه ، وما أثر عليه من محن وعواصف وأباءه الجواب ، وإن لم يكن موجها إلىّ شخصيا أو بالذات ، وإنما موجه لكل من كتب عنه ، وقد ألمح الدكتور رشاد سالم عنه فى مقدمة الكتاب الذى كرمه به تلامذته .. وأهدوه له بمناسبة بلوغه السبعين حيث كتب : «وقد حاولت لجنة التكريم الحصول على معلومات وافية منه شخصيا ، ولكنه امتنع عن ذلك ، لكراهته الحديث عن نفسه ، وقد شاهدت طرفا من ذلك أيام كان الأستاذ محمود إبراهيم الرضوانى يعد رسالة الماجستير عن «أبى فهر محمود محمد شاكر بين الدرس

الأدبى والتحقيق» بكلية دار العلوم ، وظهرت كتب بعد ذلك عن دار الخانجى – ألا يضاعف كل ذلك من حيرتى فى الكتابة عنه ذاته .. إننى أتخيله فى مجلسه .. كما وصف الشيخ الخولى مالك بن أنس فى مجلسه ..

يأبى الجواب فلا يراجع هيبة

والسائلون نواكس الأذقان

أدب الوقار ، وعجز سلطان التقى

فهو المهيب وليس ذا سلطان

ولقد شكوت إلى أصدقائه وتلامذته وعائلته هذا الصمت وكان لكل منهم مبرر لذلك، فأصدقاؤه قالوا : «يجب أن تعلمى أن رفضه الإجابة .. ترجع إلى أنه الأرض التى نبتت فيها كل خبراتك التى قضيت فيها عمرك هى الفنون أو القانون ثم تلقيطاتك المختلفة فى مجال التاريخ والأدب العربى ، وهى أرض ربما شكلت نفسها على ثبت معين لا تتحمل الشرح الدقيق والطويل على إجابة أسئلتك والتى تحتاج إلى مراجع كثيرة .

وقال تلامذته : «إنه يخاف أن تكون إجابته عابرة ، ولأنه يعرف أنك تكتبين عنه دائما ، وربما نشرت هذا الرأى العابر ، فإن من يقرأ لك سيتصور أن هذا العابر ، هو كل الحصيلة .. أما أبناء شقيقه «الشيخ على محمد شاكر» عبد الرحمن ، وزهير ، وعلى ، فقد قالوا لى عليك بسؤالنا نحن أولا .. وإذا غمض عليك شىء مما نقوله .. فاسأليه بشكل

غير مباشر فهو لا يحب الاستعراض والفرجة بل يخافهما ويرهبهما .. وربما كانت تلك المشاعر هى التى حالت بين الكثيرين من أقطاب الإعلام وبين تحقيق مطلبهم فى أن يظهر فى أجهزة الاعلام من إذاعة : مرئية ومسموعة ، وصحافة .. فأنت مثلا شاهدت بأم عينك كيف يحمل الأستاذ محمود شاكر كل حب للأستاذ أحمد فراج . ومع ذلك راوغه كثيراً فى أن يظهر فى برنامجه «نور على نور» ونفس الشىء حدث مع الأستاذ فاروق شوشة . كما شاهدت العدد الهائل من الصحفيين الذين رفض أن يحاورهم .

قلت : لكنى سمعت أنه سجل حواراً للمذيعة اللامعة آمال فهمى وكانت قد كلفت بتسجيله الأستاذ أحمد فراج ، قال : لو عرفت وقت تسجيله لعلمت الأسباب التى أقنع بها الأستاذ أحمد فراج عمى .. أن آمال كانت أنذاك موقوفة عن العمل فى الإذاعة المصرية . وكانت تسجل البرنامج للإذاعة العربية ، لذلك ساعدهم عمى كما ساعد كثيرا من الصحفيين العرب إذا كان حديثه لهم هو السبب الأصلى لزيارتهم مصر.

امتثلت سريعا لطلب أولاد أخيه .. لأن جملتهم الأخيرة دلتنى على اللحظة التى لن يرفض فيها محمود شاكر إجابة أسئلتى .. ألا وهى تحين فرصة زيارة أحبائه العرب له - لا سيما عرب الجزيرة ، حيث يصفو مزاجه ويكون أسخى فى العطاء وهو وسطهم .. وبغتة إنهمرت ذكرياتى عن وجوده فى هذا الركن التليد من البلاد العربية .

فقد تذكرت أنه عندما زار الكويت فى وجودى بها .. دعته الجمعية

الأدبية هناك مرة .. كما دعاه الدكتور مرزوق الغنيم عميد كلية التربية وكان عندما يلبى هذه الدعوات يرفض الصعود إلى منبر المحاضر ، بل يجلس ويتحلقه من اجتمع .. فيسأله هذا وهذا فيجيب عفويا .

سأل سائل فى هذه الجلسات : «عن أن من مخلفات هذه الأمة أن الأدب العربى بكل محتوياته يقيم منذ أكثر من خمسين عاما ليس من داخله أى من جوهره ، إنما يقيم على ضوء ما يكتب الغرباء عنه ، وهذا أخطر ما تمر به الثقافة العربية».

فأجاب : «جئت إلى هذه الجلسة دون أن أحضر لموضوع معين أتحدث فيه ، ولكن لا بأس من مناقشة هذا الموضوع . ففى البداية يجب أن تعلم أن الذى بين أيدينا ليس تراثنا ، والحقيقة التى ينبغى أن يعرفها الكثيرون أن الثقافة كل متكامل ، فالثقافة العربية الإسلامية كانت كلا متكاملا حتى أواخر القرن السادس عشر ، وكان ينبغى أن تظل هذه الثقافة بجميع أجزائها متكاملة ومحاورة للآخرين، وأن يكون جوهر المعرفة نابعا من داخلها .

ولكن ما حدث خلاف ذلك وهو أننا مع الأسف انهزمنا وانفصلنا انفصالا متتابعا عن الثقافة المتكاملة، وجاءنا شىء جديد تعلمناه ، من البعثات الدراسية فى بلاد ثقافات أخرى حجبت عنا ثقافتنا المتكاملة فوقعنا فى مأزقنا هذا .

والحقيقة تتمثل فى أننا بحاجة لثقافة متكاملة نستطيع من خلالها محاورة الآخرين ، وأعنى بالثقافة المتكاملة ، كل شىء من شهادة لا إله

إلا الله إلى الحروب التى استمرت ثلاثة عشر قرنا ، وما فى أنفسنا الآن شىء نابع من ثقافة الآخرين ، والمتعلمون منا لم يبذلوا حتى الآن أى جهد لاستعادة ثقافتهم الماضية ، والقضية الصعبة الأخرى هى صعوبة رسم تصور واضح للعملية وأن نكون بعدها محاورين . لأننا إلى الآن نقف بموقف المتلقين فقط.

لذلك فإن قضية الأصالة وإثارتها شىء لا معنى له ، لأنه يجب أن يكون كل شىء أصيلا، وأن يكون التجديد من داخل الثقافة ذاتها، وبعد أن تتجدد من ذاتها تقوم بمحاورة الثقافات الأخرى ، وذلك على أيدى أفراد تشبعوا بثقافتهم المتكاملة، لكن الواقع الآن يقول إن الأغلبية الساحقة ، ما هى إلا متلقية من الخارج ، فمحاورته لثقافته تشبه إلى حد كبير محاورة المستشرق لثقافتنا والسبب أنه يحاورها بمعلومات «الخارج» فهو غير مستوعب فى الأساس لثقافته العربية الإسلامية .

سأله آخر عن تاريخ الأمة العربية والإسلامية الآن وهو ملىء بالاهانات والآهات مع أنه كان فى السابق مليئا بالإنتصارات فما هو طريق الخلاص من هذا الواقع فى رأيك ؟

يجيب قائلا : هذا سؤال سياسى ، وليس عندى بشكل محدد إجابة لكيفية الخلاص ، لكن أعتقد أن فى حياة الأمم وحضارتها مجموعة من الأسس يفترض وجودها لكى تنهض بدورها الحضارى ومن أهم هذه الأسس اللغة ، فهذه الأمة أنزل عليها كتاب هو «القرآن» وعلى هذا الأصل أى القرآن قامت حضارتنا الإسلامية والقرآن جاء تحديا باللغة، فبدون هذا الأصل لا يمكن أن يكون هناك خلاص.

تعجب إذ ترى أمة ثائرة على الإستعمار ، تتمثل أوائل ثورتها فى

إزالة اللافتات المكتوبة بلغات أجنبية على بعض المحلات فى شوارعها ، ينتهى بها الحال إلى أن يصبح أرقى التعليم فى أعين ذوى الوجاهة والسلطة فيها .. هو المدارس الأجنبية، التى يطلق عليها اسم مدارس اللغات .. أين التحرر من الإستعمار إذن فى ظل تلك التبعية العقلية الصارخة ؟

يحدث عندنا ذلك وأكثر فأنت عندما تسير فى أى شـــــارع الآن .. لا تجد بين ألف اسم لمحل تجارة اسم عربى .. بينما العدو «المتفوق» الذى أنزل الهزيمة بنا ، يحرص على تأصيل ذاته فى الأرض المغتصبة ، وانبعاث لغة وثقافة بادت منذ قرون وأقرب مثال لها الآن حرصه على تسمية ما نسميه بالضفة الغربية لنهر الأردن «يهوذا والسامرة»، يعلم أبناءه باللغة التى استحياها من كل الآداب وكل فنون العصر على السواء ، لمزيد من احيائها .. لدينا على سبيل المثال دعوة من نقيب الأطباء فى مصر لترجمة علوم الطب العربية وتدريسه بها .. هل استجاب لها أحد؟

وبعد فقدان الأصالة يأتى فقدان الجدية : كيف يتأتى لأمة أن تبنى صناعتها - وهو أحد أهدافنا المعلنة .. بينما العلوم التى تقوم عليها تلك الصناعة مازالت تدرس عندنا لفئة محدودة بلغات أخرى ، هيهات أن نتقنها أو نبلغ فيها مبلغ أهلها ، ما لم ندخلها إلى لغتنا وتصبح جزءا من كياننا الثقافى ، وتكون النتيجة أن يصبح «الاستيراد» أسهل باستمرار من «الإنتاج» سواء فى السلاح أو غيرها مما نحتاج وتنشأ عندنا «طبقة جديدة» كل همها أن تطارد الواردات الأجنبية فى كل شيء، فيما يفيد وما لا يفيد .. وما هو ضرورى وغير ضرورى ، بل ضار فى أحيانا كثيرة.

ولأن أراؤه تدل على فساد الثقافة العربية .. وجرى المثقفين وراء الثقافة الغربية فقد سأله السائل التالى : «ما هو السبيل للخلاص من الثقافة الأوربية».

فقال : « ان التصدى أو السبيل للخلاص سهل وذلك بعد أن نستوعب ثقافتنا ولكن بشكل متكامل ، بعد ذلك نصبح جاهزين لمحاورة أية ثقافة ، فالخطر أن تغزوك هذه الثقافة وأنت فى الأساس لا علاقة لك بثقافتك . والآن نحن فى أزمة «إننا لا نملك ثقافة» فمن غير المعقول أن تكون هناك ثقافة وأن تكون معها أزمة لو كان لنا حتى ثقافة ناقصة .. فالنقص ليس مشكلة ، إنها قضية سهلة يمكن إكمالها واتمامها، فكلمة ثقافة أضحت كلمة غير محددة المعانى ، مجوفة بدون معنى ، فيجب أن تعى أولا أننا نملك الثقافة أولا .

ليس لنا طريق إلا البداية من اللغة ، يجب أن يشعر كل واحد منا أنه ليس موجودا إلا باللغة .

أن نظام التعليم الدنلوبى الذى وضعه الإنجليز فى مصر ، وعندما نجحوا فى طمس هويتنا عمموه فى بقية البلاد العربية .. وحدث ما نراه الآن من تفريغ تلامذتنا من كل شىء يمت لأصولنا .

وأنا لا أنفى أن بعضنا مازال يحب اللغة العربية ، لكن الواجب أن تكون من شيمتنا عشق اللغة والمحافظة عليها ، وأعتقد أن هذه مهمة المثقفين والمدرسين والباحثين وأن بدء العمل من هذه النقطة، فلابد أننا سننجح وأعتقد أنها مسألة بحاجة إلى جهد شاق .. أو جهاد مجيد .. فاللغة ليست نحوا وصرفا وكلمات فقط ، فنحن بحاجة لاستيعاب جوهر اللغة ودواخلها .

ولما سألوه من أين نبدأ ؟

قال : يجب أن نبدأ من أنفسنا وتوسيع دائرة الاحساس باللغة ، حتى ننقلها للآخرين فإصلاح نظام التعليم بحد ذاته ليس حلا ، فمن الممكن أن يصلح النظام التعليمى ، لكن المدرسين مثلا لا علاقة لهم بالاصلاح أو بحب اللغة والتى هى أساس العودة للثقافة المتكاملة ، فما الحل ؟

وقد سألوه وفقا لنظرته هذه ، هل الثقافة تمثل هوية ؟

قال لا شك فى أن الثقافة تمثل هوية ، وما يجعلنا نفقد هويتنا الآن أن الجيل الحالى لا يريد اللغة العربية أساس ثقافتنا ، أنه يريد اللغات الأجنبية، والدين كذلك مقوم أساسى من مكونات هويتنا الثقافية ، فعلى مر العصور وفى كل الحضارات كان الدين جذرا للحضارات ، لذلك نحن نقول أن الثقافة العربية هوية للعرب والمسلمين معا واعتقد أن سبب استلابنا الثقافى الحالى أننا لا نعد القرآن ولا الحديث على أنهما مكونان من مكونات ثقافتنا .

وكان لى دور فى أننى فتحت جزءاً من الأبواب لننهل من ثقافة الماضى من ماضينا الحضارى ، وقد أخذ منى هذا العمل عمرى كله، وقد ساهمت فى ذلك من خلال أننى علمت أبناء لى وشبعتهم بهذه الثقافة وهم موجودون فى أماكن عديدة من العالم العربى والإسلامى ، ولكنهم للآن لم يبذلوا شيئا يذكر ، فعملية بذل الجهد وفتح الأبواب للماضى الحضارى مسألة معروضة على الكل . فيجب أن نلبى هذه الدعوة .